نفسي : عمن أخذ الرافعي هذا المذهب في الكتابة ، وبمن تأثر من كتاب العربية القُدامى والمحدثين ؟

هذا سؤال لا أجد جواباً فيما حدثني به الرافعي أو أحد من أهله وصحابته ؛ وما أستطيع أن أثبت شيئاً في هذا المقام يعتمد عليه الباحث . وأكبر ظني أن الرافعي نفسه كان لا يعرف أستاذه في الأدب والإنشاء ؛ فما كان همه أول همه أن يكون كاتباً أو منشئاً ، ولكن تطوّرات الزمن هي ردته من هدف إلى هدف وألزمته أن يكون ما كان . وقد قرأ الرافعي كثيراً وأخذ عن كثير ، فمذهبه في الكتابة من صنع نفسه ، وهو ثمرة درس طويل وجهاد شاق اختلطت فيه مذاهب بمذاهب وتداول عليه أدباء وأدباء من كتاب العربية الأولين . ولكني أجد من الفائدة هنا أن أشير إلى اثنين من أدباء العربية كان يقرأ لهما الرافعي أكثر ما يقرأ إلى آخر أيامه : هما الجاحظ وصاحب الأغاني ، وكان يعجب بأدبهما ويعجب لإحاطتهما عجباً لا ينقضي وإعجاباً لا ينتهي ، وكان لابد له حين يهم بالكتابة بعد أن يجمع عناصر موضوعه في فكره أو في مذكرته — أن يفتح جزءاً من الأغاني ، أو كتاباً من كتب الجاحظ يقرأ فيه شيئاً مما يتفق ، ليعيش فترة ما قبل الكتابة في جو عربي فصيح .

ومما لا يفوتني إثباته في هذا المجال أن مجلة (الهلال) قد استفتت أدباء العربية يوماً منذ سنوات ، في أي الكتب العربية تعين الناشيء الأديب على مادته ؟ وكان للرافعي في هذا الاستفتاء جواب لا أذكره ، أحسبه يفيد الباحث عن المصدر لأدب الرافعي

وسمعت الرافعي مرة يقول : « إن كلمة قرأتها لفكتور هوجو كان لها أثر في الأسلوب الأدبي الذي اصطنعته لنفسي ؛ قال لي الأستاذ فرح أنطون مرة : إن لهوجو تعبيراً جميلا يعجب به الفرنسيون كل الإعجاب ، قوله يصف السماء ذات صباح : « وأصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل »

قال الرافعي : « وأعجبني بساطة التعبير وسهولة المعنى ، فكان ذلك حدوى من بعد في الإنشاء »

أفندعي بهذا أننا عرفنا واحداً من شيوخ الرافعي في الأدب والإنشاء ... !

« شبرا » محمد سعيد العريان

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

نشيد القبور (*)

هنالك جزيرة القبور ، جزيرة الصمت والسكون ، وهنالك أيضاً أجداث شبابي ، فلأحملنّ إليها إكليلاً من الأزاهر الخالدات

بهذا ناجيت نفسي ، فقررت أن أقتحم الغمر

يا لصور الشباب وأشباح أحلامه ، يا للحظات الغرام ! يا لأويقات الحياة الإلهية ! لقد ترامیت سريعاً إلى الزوال ، فأصبحت أستعرض ذكرياتك كما أستعرض خيال الأحبة الراقدين في القبور .

إن نفحات الطيب تهبّ منك يا أعزّ المضيعات فتروّح عن قلبي وتستقطر مدامعي ، إنها لنفحات تستنبض قلب العالم وحيداً على العباب .

أنا المنفرد أراني أغنى الناس وأجدرهم بالغبطة لأنك كنت لي يوماً أيتها الذكريات ولمّا أزل أنالك ، فقولي لي : على مَ تساقطت ثمراتك الذهبية عن أغصانها ؟

إنني لم أزل منبتا لغرامك الذي أورثتنيه يا أيام الشباب ، وبذكرك تنوّر فضائلي بعد وحشتها بعديد ألوانها الزاهية

وآسفاه ، ما كان أولاك بألاّ تفارقيني ، أيتها الأيام الساحرات فقد اقتربت إليّ وإلى شهواتي لا كأطيار يسودها الذعر بل كأطيار تستأنس بالواثق بنفسه

أجل لقد كنتِ معدّة مثلي للبقاء على العهد إلى الأبد ، يا أويقات الشباب ، وليس لي أن أدعوك خائنة وقد وصفتك بالأويقات الإلهية . لقد مررت سراعاً أيتها الأويقات الهاربات وما هربت مني ولا أنا هربتُ منك ، فما أنا مسؤول ولا أنت أيضاً عن خيانتك وعن خيانتي

لقد أماتوك طلباً لقتلي ، يا أطيار آمالي وصوبت الشرور

(*) هذا النشيد يقع في الكتاب بعد نشيد الرقص .

سهامها نحوك لتصل مخضبةً بالدماء إلى قلبي فأصابت هذه السهام مقتلاً مني لأنك كنت أعز شيء لدي بل كنت كل ما أملك ، لذلك قضى عليك بالذبول في صباك والزوال قبل أوانك

لقد صُوّبت السهامُ إليك وأنت أنعم من الحرير وأضعف من ابتسامة تمحوها نظرة قاسية

فليسمع أعدائي ما أقول :

— إنّ القتل أخف جرماً من جنايتكم علي ، فقد سلبتموني ما لا قبل لي بالاستعاضة عنه بشيء ، ذلك ما أقوله لكم ، أيها الأعداء . أفا قتلتم أحلام شبابي وحلتم دون إتياني بمعجزاتي ؟ لقد سلبتم مني تفكيري ، وهأنذا أحمل هذا الاكليل لتذكاره حاملاً معه لعنتي لكم ، أيها الأعداء ، لأنكم قصرتم مدى أبديتي فانقطعت كأنها صوت ينقطع في الزمهرير تحت جنح الظلام فماتت لي أن أنظر إلى هذه الأبدية إلا لمحا لأنها توارت عني بطرفة عين

وأتت ساعة ناجتني فيها طهارتي قائلة :

— يجب أن تكون جميع الكائنات إلهية ، وأنت أرسلت إليّ الأشباح المدنسة ، يا أيام الشباب ؛ فانقضت تلك الساعة وعادت حكمة الشباب تقول لي : (يجب أن تكون جميع الأيام مقدسة في نظري) وما هذه الكلمة إلا كلمة الحكمة المرحة . وعندئذ أتيتم أيها الأعداء فحولتم ليالي راحتي إلى أرق وهموم ، فأين توارت هذه الحكمة المرحة ؟

لقد كنت فيما مضى أتوقع السعادة فأرسلتم على طريق يومه مروعة مشئومة فتبددت أمانيّ العذاب

نذرت يوماً أن أرتجع عن كل كراهة ، فحولتم كل ما حولي إلى قروح ، فأين مضت مخلصات نذوري الطاهرات ؟

لقد مررت على سبيل السعادة كفيف البصر فرميتم على الطريق الأعمى كوماً من الأقذار فأصبحت كارهاً للطريق القديم لدى تلمسته . وعند ما توصلت إلى القيام بأصعب أعمالي ، عند ما تمكنت من الاحتفال بالانتصارات التي تغلبت فيها على ذاتي هبتم بمن يحبونني إلى الهتاف قائلين بأنني أوقعت بهم أشد الآلام

والحق أنكم لم تنقطعوا عن تشريد خير العاملات في قفيري بتحويل جناها إلى علقم مرير ؛ ولكم أرسلتم إلى إحساني أشد المتسولين إلحاحاً ودفعتم أهل الفحة ليطوفوا بإشفاق وهكذا نلتم من فضليتي وهي ممتنعة بإيمانها

وكنت كلما قدمت أقدس ما عندي محرقة التضحية تسارعون في تقواكم إلى إحراق أدسم ذبائحكم لتتصاعد أبخرة شحمها مدنسة خير ما قدست

وطمحت يوماً إلى الرقص متعالياً بفني إلى ما وراء السبع الطباق فأفسدتم على أعز المنشدين لدي ، فرفع عقيرته بأفظع الأناشيد وقرع أسماعي بنغمات الأبواق الحزينة الباكية

لقد كنت قاتلا أيها المنشد البريء ، إذ غدوت آلة في يد الغدر فقضت نغماتك على خشوعي بينما كنت أتهيأ للقيام بأروع رقصي

وما أنا بالعبر عن أسمى المعاني بالرموز إلا عند ما أدور راقصا ، لذلك عجزت أعضائي عن رسم أروع الرموز بحركاتها . فأرتج علي وامتنع عليّ أن أبوح بسر آمالي . لقد ماتت أحلام شبابي وفقدت معانيها المعزيات

إنني لأعجب لتحملي هذه الصدمات وأعجب لصبري على ما فتحت فيّ من جراح ، فكيف أمكن لروحي أن تبعث من مثل هذه القبور ؟

أجل إن فيّ شيئاً لا تنال منه السهام مقتلا ، ولا قبل لأحد بدفنه لأنه يزحزح الصخور عنه فتتحطم ، وما هذا الشيء إلا إرادتي ؛ والارادة تجتاز مراحل السنين صامتة لا يعتريها تحول وتغير . إن إرادتي قديمة لا تني تدفع قدمي إلى السير فهي القوة المتصلبة المتعالية عن الفناء

ليس فيّ من عضو لا يصاب إلا قدمي السائرة إلى الأمام تدفعها هذه الارادة الثابتة الصامدة المتجلدة التي تخترق المدافن دون أن تنطرح تحت لحودها

إن فيكِ وحدكِ يا إرادتي يصمد ما لا تبدده أيام الشباب ، فأنت لا تزالين حية وفتية تملأك الآمال ، تجلسين على ركام المدافن وقد طبع الزمان عليها قبلاته الصفراء . إنك لن تزالي أيتها الإرادة هدامة لجميع القبور ، فسلام عليك يا إرادتي ، لأنه لا بعث إلا حيث تكون القبور

هكذا تكلم زارا ... ...

فيلكس فارس